المحاضرة العاشرة: فن القصة

أولا- القصة الطويلة (الرواية):

أولا: تعريف القصة

أ- **لغةً** : يطلق الفعل الثلاثي قصَّ في اللغة على عدّة معاني:

1- تتبع الأثر، يقال قصصت أثره (أي تتبعته) والقصص مصدر قال تعالى:﴿ **قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا**﴾.الكهف: 64. أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به

2- الإعلام والإخبار: يقال قصَّ عليه ما حدث : أخبره به وأعلمه إياه، وقصّ عليه الرؤيا : أخبره عليه خبره أورده على وجهه، ومنه قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.القصص:.25

3- البيان، ومنه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.يوسف3.. أي نبين لك أحسن البيان. والقصة: الأمر، والحديث، والجملة من الكلام، والخبر. و القِصَصْ: جمع قصة التي تكتب، والقَصَص بالفتح، رواية الخبر، والخبر المقصوص، والأثر.

اصطلاحا: القصة "حكاية نثرية طويلة تستمد من الخيال أو الواقع أو منهما معًا، وُتبنى على قواعد معينة من الفن الكتابي"[1].

وهي "وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاع معين من الحياة يتناول حادثة واحدة أو عددًا من الحوادث بينها ترابط سردي ويجب أن تكون لها بداية ونهاية".[2]

أو هي فن أدبي يتناول حادثة أو مجموعة حوادث تتعلق بشخصية أو مجموعة من الشخصيات الإنسانية في بيئة زمانية ومكانية ما، تنتهي إلى غاية أو هدف بُنيت من أجله القصة بأسلوب أدبي ممتع ، كما أنها تجمع بين الحقيقة والخيال".[3]

بعد سرد هذه التعريفات، تتكشف لنا أهم النقاط التي يجب توافرها في أي قِصة أدبية حتى تسمّى بذلك، وهي:

أولا: فن أدبي له قواعده وأهدافه. ثانيًا: حكاية نثرية قد تجمع بين الحقيقة والخيال.

ثالثًا: وسيلة للتعبير عن الحياة. رابعًا: ذات أسلوب ممتع وشائق.

تاريخ الرواية الجزائرية ظهرت القصة الطويلة أو الرواية متأخرة في الأدب الجزائري مقارنة بالأشكال الأدبية الأخرى (المقال الأدبي،القصة القصيرة، المسرحية)، يقول عبد الملك مرتاض:

---

[1] – إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ص 739.

[2] – محمد كامل حسن: القرآن والقصة الحديثة، ط1، بيروت دار البحوث العلمية 1971، ص9.

[3] – زايد فهد: أسرار القصة القرآنية، ط1، دار يافا، عمان 2007، ص 11.

من سوء حظ النثر الأدبي في الجزائر، أنه لم يعرف إلا محاولة روائية واحدة هي (غادة أم القرى) لأحمد رضا حوحو، وهي رواية تجاوزت حجم القصة القصيرة. ويتساءل عبد الملك مرتاض " إننا لا ندري ما منع الكتاب الجزائريين باللغة العربية، خلال هذه الفترة من معالجة الأدب الروائي، أيعود ذلك إلى نضوب في الخيال؟ أم إلى عدم وجود دور للنشر؟ أم إلى عدم وجود قراء؟ أم إلى عدم وجود كفاءات أدبية متمكنة؟ أم إلى ذلكم جميعا؟ إن الإجابة بالتحديد صعبة".[1]

تجري حوادث هذه الرواية في الحجاز ويدور موضوعها حول الحجاب، وما ينشأ عنه من كبت، وحول التقاليد البالية وما تسببه للناس من شقاء. فقد أحبت زكية ابن خالتها جميلا، الذي لم يكن يعلم بذلك ولم يكن يفكر فيها أبدا، وإنما كان يحب أختها التي تكبرها بعامين، وهي أسماء، ولم يكن لأمه غيره، في حين أن أباه كان قد قتل في الحرب. وما كان أحد من أسرة الفتاة زكية يعلم بهذا الحب الذي تولد في قلبها منذ الصبا، حين كانت تلاعب ابن خالتها طوال النهار، ذلك بأن جميلا كان يقيم أول الأمر وأمه في دار أبيها بحكم القرابة، وبحكم مقتل أبيه في الحرب.

ويعلل عبد الله ركيبي سبب ذلك بكون ظروف كثيرة أسهمت في جعل من يكتب باللغة القومية مجهولا إلى حد ما، في حين أنها أسهمت في التعريف بمن يكتب باللغة الأجنبية في الجزائر، حتى إن بعض الدارسين للأدب الجزائري الحديث في البلاد العربية حين عرضوا لهذا الأدب درسوا الآثار المكتوبة باللغة الأجنبية ولم يشيروا من قريب أو بعيد إلى من يكتب باللغة القومية[2].

وعن بدايات هذا الشكل الفني من السرد، يقول ركيبي: "أما فيما يتعلق بالرواية العربية الجزائرية، فإن للنقاد عذرهم في عدم الحديث عنها لأنها -كما أسلفت-ظهرت أخيرا، فهي من مواليد السبعينات بالرغم أن هناك بذورا ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية يمكن أن نلحظ فيها بدايات ساذجة للرواية العربية الجزائرية سواء في موضوعاتها أو في أسلوبها وبنائها الفني، فهناك قصة مطولة بعض الشيء كتبها "أحمد رضا حوحو وسماها غادة أم القرى تعالج وضع المرأة ولكن في البيئة الحجازية، ثم هناك قصة كتبها عبد المجيد الشافعي وأطلق عليها عنوان (الطالب المنكوب) وهي قصة مطولة أيضا رومانسية في أسلوبها وموضوعها، فهي تتحدثعن طالب جزائري

---

[1] – عبد الملك مرتاض فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص191.

[2] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الأدبي الجزائري، ص198.

عاش في تونس في أواخر الأربعينيات أحب فتاة تونسية وسيطر عليه حبها حتى غنه كان يغمى عليه من شدة الحب، ومضمونها ساذج مثل طريقة التعبير فيها"[1].

ثم يسترسل الدكتور ركيبي في تعليل أسباب تأخر هذا الفن في الجزائر ويرجعه إلى:

كون هذا الفن صعب يحتاج إلى تأمل طويل وإلى صبر وأناة، ثم يتطلب ظروفا ملائمة تساعد على تطوره وعناية الأدباء به.

أن كتاب الجزائر لم يجدوا أمامهم نماذج جزائرية يقلدونها أو ينسجون على منوالها كما كان الأمر بالنسبة للكتاب باللغة الفرنسية الذين وجدوا تراثا غنيا ونماذج جيدة في الأدب الفرنسي.

الرواية الجزائرية بعد الاستقلال

إن البدايات الحقيقة التي يمكن أن تدخل في مفهوم الرواية هي هي التي ظهرت في السبعينات مثل قصة (ما لا تذروه الرياح) لمحمد عرعار، ثم رواية (ريح الجنوب) لعبد الحميد بن هدوقة التي كتبت فيما يبدو قبل السابقة ولكنها طبعت بعدها،ثم ظهرت في السنتين الماضيتين روايتان للطاهر وطار وهما على التوالي (الزلزال) ثم (اللاز)[2].

وقد كثر كتاب الرواية الجزائرية بعد الاستقلال ، وتعددت مواضيها واتجاهاتها، واكتسبت طابعا فنيا راقيا، من حيث البنية السردية. وألفت دراسات قيمة حول هذا الفن منها:

مرتاض عبد الملك: القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

وقد تضمن الكتاب المحاور الآتية: المضمون، الشخصية الحيز، المعجم الفني.

تاريخ القصة القصيرة في الثقافة العربية

لقد عرف العرب فنونا قصصية متعددة، أبرز هذه الفنون هو فن المقامة، الذي ظهر على يد بديع الزمان الهمذاني. وقد استمر التأليف في هذا الفن إلى غاية العصر الحديث، ولما أتيح للأدباء الناشئين الاطلاع على الآداب الأوروبية، تأثروا بها، وكانت القصة القصيرة من جملة الفنون التي استهوتهم، فراحوا أول الأمر يقلدونها متأثرين بأساليب المقامة، التي تتميز باحتفائها بمختلف أساليب الزخرفة من بيان وبديع، مثل ما فعل محمد المويلحي في: حديث عيسى بن هشام. وحافظ إبراهيم في: ليالي سطيح. ثم ما لبثوا أن تبنوا القصة القصيرة أداة للتعبير، وهجروا

---

[1] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الأدبي الجزائري، ص199-200.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص201.

المقامة، بعد أن تبينوا أنها لا تفي بحاجاتهم إلى التعبير، لأنها وضعت أداة لتعليم اللغة الفصيحة والأساليب المهذبة. وقد يعتبر الأخوان محمد ومحمود تيمور رواد القصة القصيرة، ولهما الفضل في وضع أسسها، وتحديد معالمها في الأدب العربي الحديث متأثرين بالكاتب لفرنسي: جي دي موباسان[1](1850-1893) فألفا:(الشيخ جمعة وقصص أخرى). وقد نحا نحوهما كثير من الكتاب مشرقا ومغربا مثل:يوسف إدريس، يحي حقي، نجيب محفوظ، طه حسين ، المازني، ومحمد حسين هيكل،...

أما في الجزائر فقد نشأت القصة القصيرة متأخرة مقارنة بالعالم العربي، ويرجع ذلك إلى ظروف عرفتها الجزائر دون غيرها من أقطار العالم العربي.

مفهوم القصة القصيرة: اختلف النقاد في تعريفها بين رافض للتعريف لأنها من الأدب، والأدب لا يخضع لحدود أو قوانين كالعلم، ذلك أن التقنين يحد من انطلاقه وحيويته.

على أن البعض حاول تعريف القصة عامة والقصة القصيرة خاصة، كما فرقوا بين الرواية والقصة والقصة القصيرة على أساس الحجم.

وإذا كان تعريف القصة القصيرة صعب المنال فإن تتبع سماتها ومميزاتها عن بقية الأنواع القصصية والأدبية الأخرى يحدد مفهومها.

وأول هذه السمات أن القصة القصيرة تعبر عن موقف معين في حياة الفرد أو جانب من هذه الحياة، أو بعض الجوانب، ولا تعبر عن حياة الفرد كاملة.

إذن فهي رؤية فكرية وفنية لجانب من الحياة.

نشأة القصة القصيرة الجزائرية

ترى الكاتبة عايدة أديب بامية أنه من الضروري "من أجل دراسة القصة القصيرة ، أن نعود إلى فترة ما بين الحربين العالميتين، لنتعرف على الدور الذي لعبته جمعية العلماء وصحافتها في

---

[1] - القصة القصيرة في أروبا تطورت واكتملت سماها على يد ثلاثة من كبا الكتاب هم: إدجار ألان بو (1809-1849) في أمريكا. جي دي موباسان (1850-1893) فس فرنسا. أنطوان تشيكوف (1860-1904) في روسيا. ينظر: عبد الله ركيبي: تطور النثر الأدبي الجزائري، ص171.

تطورها وتقدم النثر العربي بصفة عامة ... وعلى هذا أساس هذه الخلفية يجب دراسة القصة القصيرة العربية ، لأنها ولدت على صفحات صحافة جمعية العلماء "[1].

بينما يقول عبد الله ركيبي: " نشأت القصة القصيرة الجزائرية متأخرة عن القصة في المشرق العربي لظروف تتصل بالثقافة العربية وبالأدباء أنفسهم و بثقافتهم الخاصة و تكوينهم الفكري الذي ارتبط بالتراث ارتباطا كليا منذ البدايات الأولى للنهضة الأدبية في الجزائر وارتباط الأدب بالحركة الإصلاحية، بدعوتها و مبادئها و أهدافها و هي في مجملها تستند إلى الدين و الإصلاح، و تتسم بالمحافظة في النظرة والرؤية، ومن ثم فإن الأدباء الذين اعتنقوا هذه الفكرة حصروا أنفسهم في نطاق ضيق لم يستطيعوا الخروج عنه، و بالتالي لم يحاولوا أن يجربوا في مجال الفنون الأدبية الجديدة مثل القصة القصيرة"[2]. وقد تأخر ظهور القصة لأسباب كثيرة نوجزها على النحو التالي:

ا-الاستعمار الذي وضع الثقافة القومية في وضع شل فاعليتها و حركتها مما نتج عنه تأخر الأدب الجزائري عامة، و لاسيما أحدث فنونه و هي القصة القصيرة، و قد كان اضطهاد اللغة العربية و محاولة القضاء عليها من طرف الاستعمار الفرنسي عاملا أساسيا في تخلف الأدب و تأخر القصة، فقد جاء رد الفعل من محاولات الحفاظ عليها كلغة البلاد القومية، لغة الثقافة و العلم و الدين، محاولات نعلم جميعا مدى ما استلزمت من تضحيات وجهود شاقة مريرة، و لكنها لم تضع في حسابها ضرورة تطويرها و جعلها لغة صالحة للأدب و أداة مرنة طيعة له[3].

ب- التقاليد و أبرزها ما يتعلق بوضع المرأة في المجتمع إذ كانت منغلقة لا يسمح لها بالاختلاط أو المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية، ولهذا كان من الصعب أن تعالج القصة علاقة الرجل بالمرأة أو أن تتعرض إلى هذا الموضوع[4].

ج- ضعف النقد وعدم وجود الناقد الدارس الموجه، وضعف النشر وانعدام وسائل التشجيع الكافية للأديب القاص كي يكتب و ينتج ويجرب، ولا ننسى عدم وجود المتلقي لهذا الإنتاج لو صدر، و

---

[1] - عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1965، تر: محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص303.

[2] - عبد الله ركيبي: تطور النثر الأدبي الجزائري، ص162.

[3] - المرجع نفسه، ص163.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص164.

كيف يوجد في ظل الأمية التي فرضتها سلطات الاستعمار الفرنسي على شعب الجزائر كي يظل متخلفا[1].

تطور القصة القصيرة في الجزائر

يمكن حصر العوامل التي أدت إلى تطور القصة القصيرة الفنية في الجزائر في أربعة نقاط:

1 – اليقظة الفكرية

من أهم الأسباب التي أثرت في تطور القصة القصيرة في الجزائر هي اليقظة الفكرية التي صاحبت اليقظة السياسية عقب الحرب العالمية الثانية و انتفاضة (ماي) سنة 1945. فهذه اليقظة كانت تعبيرا عن موقف حضاري أحس فيه الشعب الجزائري إحساسا عنيفا بشخصيته و قوميته و عروبته و ماضيه، فظهرت القصة القصيرة التاريخية التي تلح على مقومات الشخصية الجزائرية، رغم أن إنتاجها كان نزرا يسيرا.

وقد جاءت هذه اليقظة نتيجة تحرر الشعوب عامة ونتيجة مشاركة الشعب الجزائري في الحرب خاصة. هذه الحرب التي كانت نهايتها قتل الجزائريين بالجملة في مظاهرات (ماي) الصاخبة التي قوبلت من جانب الاستعمار بالقمع و التنكيل[2]

2 – البعثات الثقافية للمشرق العربي

اتسع نطاق هذه البعثات بصورة أكثر عن ذي قبل ، و توثق الاتصال بالأقطار العربية التي فتحت صدرها للجزائريين ليدرسوا في مدارسها و جامعاتها، فاتصلوا بالثقافة العربية في منابعها، وبالثقافة الأجنبية في ترجماتها، و اطلعوا على نماذج من القصة القصيرة العربية التي كانت قد بلغت درجة من الجودة والإتقان، ووجدوا في هذه البيئات تفتحا أكثر[3].

3 – الحافز الفني لكتابة القصة

بدأ الأدباء في محاولات جادة لكتابة القصة القصيرة – في أواخر الأربعينات و أوائل الخمسينات وهي الفترة التي بدأ فيها التطور القوي لها – و لكن هذه المحاولة تعددت حوافزها فهناك من كتب بدافع ملء الفراغ و الشعور بأن الأدب الجزائري قد خلا من القصة القصيرة إلى

---

[1] -- ينظر: المرجع السابق، ص 164-165.

[2] – عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص153.

[3] – المرجع نفسه، ص154.

حد التصريح بذلك. و هناك من كتب القصة للتجربة أو بدافع الحماس بسبب الثورة، فأراد أن يسجل أحداثها أو يصور بعض أبطاله، ولكن هناك من كتب القصة بدافع فني. بدافع أدبي يحقق فيه ذاته وجوده. و هذا النوع هو الذي استطاع أن يساهم في تطور القصة القصيرة الجزائرية و أن يوصل التجربة في هذا المجال[1].

4 – الثورة

لا شك أن الثورة فتحت مجالا أكثر لكُتّاب القصة القصيرة ، فغيرت كثيرا من نظرتهم إلى الواقع . فبعد أن كان الحديث عن الواقع لا يعدو أن يكون تسجيلا له، أصبح التعبير عن هذا الواقع و تصويره هو هدف كتّاب القصة القصيرة. فظروف النضال كشفت للكتاب عن إمكانيات ضخمة و تجارب جديدة دفعتهم للبحث عن جديد، سواء أكان ذلك في الموضوع أو في المضمون أو في الشكل[2].

و ظهرت موضوعات جديدة تتحدث عن الاغتراب و عن الهجرة، وعن الحرب و الثورة وآثارهما. تصف الجبل و تدين الاستعمار، و تصور مشاركة المرأة في الثورة و النضال ... ومن هنا ظهر في القصة البطل الإنسان الذي يخاف و يتغلب على خوفه، و اختفى البطل الفريد الخارق للعادة[3].

و عموما يمكن القول بأن كتاب القصة القصيرة الفنية – أو بعضهم على الأقل – في هذه المرحلة عنوا بهيكل القصة و بنائها، الأمر الذي يوضح وعيهم بفن كتابتها.

وهذا لا يعني أن القصة القصيرة قد توفرت فيها كل الخصائص أو السمات الفنية، وإنما يعني أنها خطت خطوة جديدة في تطورها، واقتربت كثيرا من النضج، لكن الباحث في هذا المجال لا يعدم قصص أخرى ساذجة لم ترق إلى مستوى القصة الفنية[4].

البدايات الأولى للقصة الجزائرية القصيرة

---

[1] – ينظر: لمرجع السابق، ص156–157.

[2] – المرجع نفسه، ص159.

[3] – المرجع نفسه، ن ص.

[4] – المرجع نفسه، ص161.

1- من المحاولات الأولى محاولة محمد بن عبد الرحمالن الديسي في قصته (المناظرة بين العلم والجهل) سنة 1908.هيأ فيها شخصيتين الأولى تنطق بلسان العلم والثانية تنطق بلسان الجهل، وألحق بهما شخصية ثالثة تنطق بلسان العدل في الفصل بين الخصمين في حضور جمهور من الفضوليين[1].

2- وكان محمد بن العابد الجلالي (1890 -1967) من مواليد أولاد جلال بسكرة، من المبكرين في كتابة هذا النوع الأدبي ومن محاولاته في ذلك: (السعادة البتراء) التي نشرها في ركن (معرض آراء وأفكار) بمجلة الشهاب، باسمه المستعار (رشيد)[2] سنة 1935،. وله محاولة أخرى بعنوان (على صوت البدال)، الشهاب جانفي 1937) (الصائد في الفخ،) (أعني على الهدم أعنك على البناء). وهذه المحاولات هي مزيج من مقالة قصصية وحكاية، وهو يكتب من رؤية إصلاحية دون أن يعطي اعتبارا للحدث أو للشخصيات مما يعني جهله بفن القصة الحديثة[3].

3- محمد السعيد الزاهري (1897-1956) في مقالاته القصصية التي نشرها في الشهاب، وهي مطبوعة في كتيب بعنوان: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير. تصدى فيها للفكر التنصيري التبشيري.

4- أحمد رضا حوحو من مواليد استشهد سنة 1956. وله مجموعات قصصية (صاحبة الوحي)ن (ماذج بشرية)، (حمار الحكيم)، ورواية (غادة أم القرى).

البدايات الفنية للقصة الجزائرية القصيرة

إن أحداث الثامن ماي 1945 كان أثرها واضحا في صياغة ذهنية جديدة لدى الفنان الجزائري، فقد تحركت همم الكتاب وتفتقت قرائحهم برؤى جديدة كشفت عن قالب أكثر تصورا وأشد قوة في القصة القصيرة التي كان الشكل فيها - حتى هذه الفترة تتجاذبه سمات تعبيرية عديدة (مزيج بين الحكاية والمقالة القصصية، أو مقالة قصصية وإصلاحية دينية وعظية، أو سيرة ذاتية في قالب حكاية)[4].

---

[1] - عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ص164.

[2] - المرجع نفسه، ص166.

[3] - المرجع نفسه، ص169.

[4] - المرجع نفسه، ص177.

بدا هذا واضحا عند أحمد رضا حوحو بعد ما استفاد من تجربته السابقة،(راجع مقدمته ل:صاحبة الوحي سنة 1954. ولنماذج بشرية سنة 1955.

كما عبر عن ذلك أبو القاسم سعد الله في جريدة البصائر في 21-05-1954 في مقدمة لقصته (سعفة خضراء)

موضوعا ت القصة الجزائرية القصيرة

عالج القصاصون الجزائريون كثيرا من الموضوعات فيما بعد الحرب العالمية الثانية، ةأهمها:[1]

1- موضوعات عاطفية: أبرز من عالجوا هذا الموضوع رضا حوحو في أقاصيصه: (صاحبة الوحي، فتاة أحلامي، خولة).

2- موضوعات اجتماعية: من الذين ذهبوا هذا المذهب أحمد بن عاشور في أقصوصته (تضحية) بنى حوادثها على الحب والعاطفة ولكنه عالج فيها السحر والشعوذة التي كانت تشيع في المجتمع الجزائري. وكذلك قصة ابن عاشور عنوانها (زواج عصري).

3- موضوعات نفسية: مثل أقصوصة (سعفة خضراء) لأبي القاسم سعد الله عالج فيها موضوعا نفسيا بحتا.

4- موضوعات أخلاقية: يذكر مرتاض أقصوصتين رمز صاحبهما لاسمه بالمحبوب دون أن يصرح به إحداهما: (زليخة والعفة تتذمران من الحَمَامات البحرية الماجنة) ومنطوق هذا العنوان يوحي بالمدلول لمقصود وهو الحث على الأخلاق، ومحاربة الرذيلة بطريقة وعظية خطابية معا.

5-موضوعات وطنية إصلاحية: عالج محمد الصالح رمضان موضوعا وطنيا إصلاحيا استوحاه من المقالات الإصلاحية التي كانت تكتب في البصائر الأولى والثانية، في أقصوصة (القافلة) كما كتب محمد السعيد الزاهري في موضوعات وطنية إصلاحية (عائشة).

[1] - عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص175.